الفصل الأول

القابلية للاستبداد الداخلي قبل «الاستعمار»

— 1 —

قد يبدي البعض تعجباً من ربط كلمة الاستبداد بالفكر أولاً، لأن المعتاد أن يأتي الربط بينهما في السياسة والحكم وليس في الفكر والثقافة، وقد يأتي التعجب مرة أخرىٰ من بحث الاستبداد الفكري بين المسلمين، لأن من المتوقع أن يأتي الحديث عن الاستبداد الفكري الخارجي بما تجسد في مشاريع الاستشراق والتغريب والاستعمار والاحتلال العسكري المتكرر للبلاد العربية والإسلامية، وبالأخص من غزو فكري قبل الاحتلال العسكري وبعده، وبما ترك من آثار لا زالت قائمة في ديار المسلمين من خراب ودمار وهلاك في الماديات والمعنويات.

فالاحتلال وتوابعه تحول وبعوامل كثيرة من احتلال عسكري إلىٰ استبداد سياسي واستبداد فكري تحت عناوين متنوعة، منها أفكار الدولة الوطنية والقومية بالمقاييس الأجنبية، وقيم العلمانية الدنيوية بالمعاني الغربية، وأفكار الديمقراطية الرأسمالية، وقيم الحداثة بالمعايير الأوروبية، وحوار الأديان أو الحضارات أو صراعها، وقيم العولمة والسوق الحر، وأخيراً مشاريع الإصلاح الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي المفروضة من الخارج ولو بأيد داخلية أو غيرها، وكلها أفكار مستبدة طاغية لأنها مطروحة ومفروضة بالمقاييس الغربية الخارجية فقط.

— 2 —

لا شك أن للاستبداد الخارجي أثراً كبيراً، ولكن القابلية للاستبداد هي الأصل، والقابلية هي الخضوع لمواقف الغير بغير حق ودون مقاومة، وهي استعداد للاستسلام عند المستَبِد بهم بالخضوع للآخرين دون معارضة، ولمناقشة ذلك ولرفع التعجب نسأل، هل

الاحتلال الخارجي العسكري والسياسي والثقافي والفكري هو السبب الوحيد للاستبداد الفكري في العالم العربي والإسلامي؟ أم أن وجود القابلية للاستبداد هي السبب الأول؟

ولتوضيح ذلك نسأل: هل الغرب الأوروبي هو الذي زرع الاستبداد الفكري في عقول العرب والمسلمين من القادة والمفكرين ؟ أم أنهم ورثوا الاستبداد في الحكم من التاريخي العربي والإسلامي بعد الخلافة الراشدة، وبعد إغلاق باب الاجتهاد السياسي علىٰ حكم الأسرة المتغلبة منذ العهد الأموي، وورثوا الاستبداد في القرار الفكري من أنماط الثقافة العربية والإسلامية السائدة بعد إغلاق باب الاجتهاد الفكري علىٰ مذاهب معدودة مغلقة في العقيدة[1] والفقه، أليس في الثقافة العربية والإسلامية أصولاً ومناهج وقواعد للاستبداد الفقهي والعقدي والسياسي تعرّف بهذا العنوان التراثي أو ذاك تؤسس للاستبداد الفكري وتصنع القابلية له؟ مثل قوانين التقليد في كتب أصول الفقه؟ وقوانين الاتباع للفرقة الناجية في كتب أصول الدين؟ وقوانين الانمحاء أو الولاية في كتب التصوف، وقوانين الخضوع والتسليم للمتغلب في كتب الأحكام السلطانية وغيرها.

وإذا كان ذلك صحيحاً، أي أن جذور الاستبداد هي من رواسب التراثية[2] العربية والإسلامية، فهل كان الاستبداد الداخلي في الثقافة العربية والإسلامية السبب في تقبل الاستبداد الخارجي والتعايش معه؟ وإذا مهدت الثقافة العربية والإسلامية في عصور التقليد في نفوس العامة والأجيال العربية والإسلامية القابلية للاستبداد، فهل تكون السبب الحقيقي الذي صنع في نفوس العامة القابلية للاستعمار الخارجي الغربي الأوروبي والأمريكي؟ وهل هي السبب في صنع إمكانية التعايش والانسجام مع الاحتلال العسكري والاستعمار السياسي بعد خروجه العسكري من قبل قطاع كبير من العرب والمسلمين كما هو مشاهد بالأمس واليوم؟

---

(1) يفرق المؤلف بين الإيمان والعقيدة، فالعقيدة تفسير نصوص الإيمان الثابتة بالوحي، للمزيد انظر: شرعية الاختلاف بين المسلمين، للمؤلف.

(2) حول مفهوم التراث والتراثية انظر كتاب: دور التراث في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، عمران سميح نزال، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، وفصل التراثية روح الاستبداد الفكري والاجتماعي والسياسي في هذا الكتاب.

— 3 —

هذه بعض الأسئلة التي تفرض نفسها علىٰ الواقع المعاش الذي تجاهل أو قاوم بغير إرادته مشاريع النهضة العربية والإسلامية التي توالت علىٰ المنطقة منذ أكثر من قرن من الزمان، سواء كانت مشاريع قومية أو إسلامية، وإن لم تكن قد قاومتها فعلاً فإنها لم تتجاوب معها التجاوب المطلوب، وذهبت أغلب تلك المشاريع أدراج الرياح أو صيحات في واد سحيق، كما قيل عن مشروع عبد الرحمٰن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد قبل قرن من الزمان.

هذه الأسئلة تفرض نفسها علىٰ المفكرين الأحرار من العرب والمسلمين الذين يشعرون بالهزيمة الداخلية والخارجية، ويدركون مدىٰ التخلف الواسع في الداخل والخارج، ويدركون الحاجة إلىٰ التغيير ويدركون صعوبته ويبحثون عن عوامل تأخره، ويبحثون عن العوامل التي أخرت أو حرفت مشاريع النهضة العربية والإسلامية السابقة، والتي فيها من القيم والأفكار الصحيحة ما يستحق النجاح، وأكثر ما يؤلمهم النتائج السلبية لبعض هذه المشاريع علىٰ أصحابها من المفكرين والمؤسسين أولاً، وعلىٰ عامة المسلمين ثانياً، بما أحدثته من مواقف بائسة أو يائسة أو شبه يائسة من التغيير والنجاح، وبالأخص بعد أن تجددت غزوات العدوان العسكري الخارجي في العقود الأخيرة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، واستعملت فيها أقسىٰ أنواع الأسلحة والتدمير الهائل، وتعمدها تدمير مراكز انبعاث الحضارة العربية والإسلامية ومدنها العريقة.

— 4 —

لقد كان العدوان الخارجي الذي ظهرت نتائجه علىٰ الملأ بعد الحرب العالمية الأولىٰ ـ من خلال تجسده في صورة احتلال عسكري وسياسي لبلاد العرب والمسلمين ـ هو الكاشف الأكبر عن مدىٰ الضعف الذي بلغته الشعوب العربية والمسلمة قبل وقوع الهزيمة العسكرية الكبرىٰ، فكان لا بد من البحث عن هذه الأسباب، أي البحث عن أسباب الضعف الداخلي

الذي سبق الهزيمة الخارجية، دون أن يعطل ذلك البحث أو يعيق عمليات التحرر من كل أشكال العدوان الخارجي، فلا تعارض بين بحث أسباب وعوامل الضعف الداخلي ـ ومن أهمها القابلية للاستبداد ـ وأسباب وعوامل نجاح الهجوم الخارجي، وسبل مقاومته والقضاء عليه، ودون أن يمنع معرفة مدىٰ الأضرار التي لحقت بالعرب والمسلمين من جراء الاحتلال العسكري والسياسي وآثاره التخريبية علىٰ البلاد والعباد.

بل كان لا بد من دراسة أسباب استدامة حالة الاستعمار السياسي والثقافي بعد زوال أشكال الاستعمار العسكري في كثير من بلدان العرب والمسلمين، والتي استقلت شكلياً بحدود النصف الأول من القرن العشرين الميلادي الماضي، وقبل أن يأتي الاستعمار الأمريكي السياسي والعسكري من جديد، وكان لا بد من السؤال أيضاً إن كانت حالة التبعية السياسية أو الفكرية للغرب تمثل جزءاً كبيراً من أسباب استدامة الهزيمة الخارجية الكبرىٰ؟ أم هي بسبب ضعف في الثقافة العربية والإسلامية التراثية والمعاصرة؟ أم بسبب الانبهار والاقتناع بالثقافة الأوروبية الغربية (الرأسمالية) والشرقية (الاشتراكية) وما أحدثته علىٰ أرض الواقع من تقدم وازدهار مادي لشعوبها؟ أم بسبب انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين؟[1].

وإذا حصر السؤال في الجانب الثقافي ـ إذا أمكن استثناء العوامل الأخرىٰ ـ نسأل هل تغلبت الثقافة الأجنبية علىٰ الثقافة العربية والإسلامية الأصيلة؟ أم أن استبداد سلطات الحكم في البلاد العربية والمسلمة هي التي حالت دون كشف الحقيقة بحرية، ومنعت البحث عن الأسباب الحقيقية لوجود الاستبداد الداخلي والخارجي، وبالأخص بسبب ما مارسته الدولة العربية الوطنية والقومية الحزبية والعسكرية من استبداد وإرهاب وقتل ضد معارضيها في ذلك الوقت.

(1) انظر: سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين، محمد سعيد العرفي، الطبعة الثالثة، 1416هـ ـ 1996م.

ـ 5 ـ

إن هذا الكتاب يعنىٰ بدراسة عوامل الاستبداد الداخلية والتاريخية تحديداً ويعطيها الأولوية علىٰ غيرها، ولكنه مطالب بالسؤال عن العوامل الخارجية وأثرها علىٰ الاستبداد الداخلي، وما لا بد من دراسته من جهة العوامل الخارجية هو ما له أثر علىٰ تشجيع عوامل الاستبداد الداخلي واستمراره، سواء في الجوانب الإيجابية أو السلبية، وهو إن كان للثقافة الأوروبية الغربية الاستعمارية الأولىٰ، والثقافة الأمريكية الجديدة دور في تثبيت وتشجيع الاستبداد بين العرب والمسلمين وبالأخص في الجوانب الثقافية والفكرية، بالرغم مما يشاع عن الحضارة الغربية من تشجيعها شعوب العالم علىٰ قيم التحرر والمساواة، ولكن يخشىٰ أن تكون الدعوة شيء والممارسة العملية شيء آخر، وبالأخص إذا كانت تتعلق بالعرب والمسلمين.

لقد اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية وعلىٰ لسان رئيسها جورج بوش الابن أن أمريكا دعمت الدول والأنظمة المستبدة وغير الديمقراطية في الشرق الأوسط لمدة تزيد عن ستة عقود من القرن الماضي، وتدعي اليوم أنها تحاول الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديمقراطي في منطقة الشرق الأوسط بالتعاون مع الدول الصناعية الثمانية[1]، ولكنها في الوقت نفسه تمارس أقسىٰ أنواع الاستبداد الفكري علىٰ العرب والمسلمين وهي تلوح بتهمة الإرهاب ضد كل معارض لسياستها في المنطقة.

ومثالاً علىٰ ذلك فقد أخرجت صناعة الإعلام الغربي والأمريكي تحديداً وعلىٰ أعلىٰ درجات المسؤولية من الإدارة الأمريكية مفهوماً جديداً للاستبداد باسم الحرب علىٰ الإرهاب، نشرته بأضخم وسائل الإعلام العالمية وروجته علىٰ أوسع نطاق وعلىٰ أعلىٰ مستوىٰ، واتخذت من أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر لعام 2001م في الولايات المتحدة الأمريكية ـ والتي لا يعرف مدبرها الحقيقي حتىٰ اليوم ـ ذريعة لتغيير كثير من

(1) انظر: مجلة السياسة الدولية، خطة مجموعة الدول الثماني لدعم الإصلاح الصادرة عن قمة الثماني في الولايات المتحدة [11 يونيو 2004]، العدد (157)، السنة 2004م.

المفاهيم والقيم العالمية والدولية لصالح الولايات المتحدة الأمريكية ولو كانت علىٰ حساب أرواح إنسانية بريئة مظلومة، أو شعوب مقهورة مغلوبة.

— 6 —

وبداية لا بد أن نوضح أن تناول مفهوم الإرهاب في هذا الكتاب ليس لما له من ضجة إعلامية ودولية وعربية وبين المسلمين، وإنما لما له من أثر وتأثير علىٰ موضوع الاستبداد بين المسلمين، ونحن هنا نحذر من الانجراف وراء هذا المفهوم الذي صنعته آلة الإعلام الأمريكية كأداة إعلامية لتبرير أفعال السياسة الأمريكية وربما السياسة الدولية بعامة، كل باتجاه معارضه الثقافي والفكري والديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل ومع كل معارض له بحق أو دون وجه حق.

صحيح أن الشعوب العربية والإسلامية من أكثر الشعوب في العالم تضرراً من إعلان «الحرب علىٰ الإرهاب»، لما يلحقه هذا الإعلان أو التفسير الخاطئ له من ظلم عليهم أكثر مما يقع علىٰ الناس كافة، ولكن ظلمه لا ينحصر علىٰ وجهه الخارجي، أي وهو تهديد من الخارج من أكبر قوة عسكرية في العالم، وإنما من وجهه الداخلي، وهو عندما يتحول إلىٰ شعور سلبي لدى الناس من خوف التهمة بالإرهاب، التي تنهك قواهم الفكرية وتهزم نفسيتهم المريضة، مثله مثل الخوف من الاستبداد، فيصبح عائقاً أمام التفكير والتجديد والتغيير، إن الخوف من تهمة الإرهاب وهو ما سوف نصطلح عليه في هذا الكتاب باسم «الاسترهاب»، لا يقل خطورة عن الإرهاب نفسه، لأن الإرهاب تهديد خارجي قد تقاومه الشعوب الحرة والقوية فتتغلب عليه إذا كان عدوانياً وظالماً، أما الاسترهاب فهو هزيمة داخلية لا يسهل التغلب عليه إلَّا بجهود كبيرة ومتواصلة وصادقة وتضحيات كبيرة، والاهتمام به في هذا الكتاب لأنه يمثل الصورة الأخرىٰ للاستبداد الذي يجب إزالته من طريق التغيير والنهضة.

— 7 —

وفي كل الأحوال، وسواء كانت القراءة للمحور السياسي أو الفكري، فإن التساؤل هو عن أسباب الجمود وشروط الاستنهاض الفكري والسياسي، وبين يدي هذا الكتاب دعوىٰ يسعىٰ البحث إلىٰ إثباتها وهي: أن أهم أسباب الجمود الفكري والسياسي هو القابلية للاستبداد عند العرب والمسلمين، وإن اختلفت وجوهه ومصادره في الفكر والسياسة، وأن من أهم شروط الاستنهاض زوال الاستبداد، وإن اختلفت وجوهه ومصادره في السياسة والفكر، ولا يتوقف الأمر علىٰ إثبات الدعوىٰ وإنما علىٰ اقتراح العلاج الذي يزيل أسباب الإعاقة، ويؤسس لبناء النهضة العربية والإسلامية المنشودة.

إن التحرر من الاستبداد شرط لكل نهضة وإصلاح، ولن يزول الاستبداد حتىٰ تزول القابلية النفسية له، أي حتىٰ تتحرر النفوس من قبول الاستبداد مهما كان مصدره ومبرراته ووجوهه التراثية والمعاصرة، وحتىٰ يخلق جيل عربي وإسلامي حر فيه الاستعداد للمعارضة والمقاومة، فيحرر نفسه من القابلية للاستبداد الفكري قبل تحرير نفسه من القابلية للاستعمار أو القابلية للاحتلال الخارجي والتعايش معه.

إن الحديث عن الاستبداد الفكري الداخلي، التاريخي والمعاصر، ليس نقداً ولا نقضاً للثقافة العربية والإسلامية، لأنه عندما وجد في التاريخ صدر عن اجتهاد يعالج مشكلة آنية في عصره وتاريخه[1]، ولا بد أن اجتهادات أخرىٰ خالفته، ولكنه تغلب علىٰ الاجتهادات الأخرىٰ لأسباب عديدة قد يكون منها الأسباب المعرفية أو الفقهية أو العقدية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو غيرها، ولكن الأخيرة هي الأرجح لأنها تجعل من الاجتهاد المتغلب اجتهاداً رسمياً تتبناه الدولة وتوابعها الثقافية أفراداً ومؤسسات.

ومن هنا فإن معركة النهضة المعاصرة مطالبة بتقديم اجتهادها الأقوىٰ والأكثر صلاحاً

---

(1) للمزيد حول هذه الأسباب انظر كتاب: شرعية الاختلاف بين المسلمين، عمران سميح نزال، فصل زوال أسباب الاختلاف التاريخي بين المسلمين، ص 261.

وصلاحية في الحياة الدنيا حتىٰ ينفع عصره وأهله كما يدعوها إلىٰ ذلك الإسلام نفسه، أي أن المعركة هي في تقديم الاجتهاد الأحسن وليس صراع الاجتهادات التاريخية والمعاصرة، وصاحب القرار والحكم بين هذه الاجتهادات المقدمة هم عامة المسلمين أو الغالبية المؤثرة منهم، وهم الذين يجعلون من الاجتهاد الأقوىٰ حركة معرفية وعلمية مؤثرة، وقادرة علىٰ أن تصبح حركة اجتماعية فاعلة في مجريات الأحداث، ومن ثم قائدة لتطلعات الجماهير ومصالحهم العلمية والعملية.

obeikandl.com